

(٢١ - من تراث الكوثرى)

إرغام المريد

فى شرح النظم العتيد لتوسل المريد برجال الطريقة
النقشبندية الخالدية الضيائية قدس الله أسرارهم العلية
مع ذكر تراجم السادات ضمن شرح تلك الأبيات

لأفقر الخلق إلى أطفاف الملك القوى

محمد زاهد بن الحسين الحكيم

المتوفى سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م فى القاهرة

رجوت بذاك أن يُعفى آثامى ولا أنسى إذا رمت عظامى
سيبقى الدهر (إرغام المريد) وكاتبه ثوى تحت الرغام

النَّاشِر

المكتبة الأنثروبومترية للتراث

٩. مدينته الأثرية خلف جامع القاهرة الشريف ت : ٥١٢٠٨٧٧

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للناسر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمداً لمن رفع دعائم الحقيقة ونصبها على قواعد شرعه القويم الذى أفاض الوجود على الأعيان الكامنة فى حضرة علمه القديم وحلى الإنسان بحلية صفاته وخلقه فى أحسن تقويم.

فأخذ العهود عن الأفراد ثم أبرزهم فوق الأديم ليلوهم أيهم أحسن عملاً بما عهدوا به إلى مولاهم الحكيم منه الصلاة على محمد الذى أرسل متمماً لمكارم الأخلاق بخلقه العظيم وهادياً للخلق إلى السبيل الحق والصراط المستقيم وعلى آله المطهرين عن كل ما يشين بشأنهم الفخيم وصحبه الأشداء على الكفار والرحماء بينهم على ما فى القرآن الكريم وأتباعه الذين أتوا إلى الحق بقلب سليم وبعد فيقول أفقر العباد إلى سبيل الرشاد أسير المعاصي والذنوب البارز النقائص والعيوب المحتاج إلى الطاف الملك القوى محمد زاهد^(١) الحنفى الدوزجوى ابن الشيخ الحاج حسن حلمى النقشبندى أفاض الله عليهما من بحر فيضه السرمدى لما كان النظم إليه لتوسل المريد الذى كنت نظمته أو أن ختمنا رموز الأحاديث لحضرة القطب المكين فى مقام التمكين الشيخ أحمد ضياء الدين^(٢) قدس سره المتين مفتقراً إلى شرح يزيل الشكوك عن مبانيه ويرفع النقاب عن وجوه معانيه أردت أن أشرحه على حسب اطلاعى وإن قصر فى ذلك باعى مع ذكر تراجم السادات فى ضمن شرح تلك الأبيات ليكون وسيلة لاستجلاب همهم الباهرة وذريعة للارتشاف من تلك البحار الزاخرة فجاء بحمد الله على وفق المراد وأتحفت به إخواننا الأمجاد بعد أن سميته (إرغام

(١) محمد زاهد الكوثرى رئيس الكتاب فى المشيخة الإسلامية العثمانية سابقاً توفى سنة ١٣٧٠ هـ [١٩٥١ م] فى مصر.

(٢) أحمد ضياء الدين الكموشخانوى مات سنة ١٣١١ هـ [١٨٩٤ م] فى

إستنبول.

المُرِيدُ فى شرحِ توسلِ المُرِيدِ) جعله الله خالصا لوجهه الكريم بجوده الفياض
وفضله العميم وهو حسبى ونعم الظهير، نعم المولى، ونعم النصير .

* * *

اعلم أولاً أنه لا يخفى أن كل من أمعن النظر والتأمل فى ذاته وأحوال
نفسه يجد نفسه ناقصة لذاتها مفتقرة إلى الغير فى الاستكمال وعند
وقوف المرء على ذلك لا جرم ينبعث من باطنه شوق إلى الكمال فينتهض
متفحصاً لأسبابه فحينئذ يكون ذلك المرء محتاجاً إلى حركة فى طلبه وأهل
الطريقة سموا تلك الحركة بالسير والسلوك والكمالات، إما علمية أو
عملية والسلوك متكفل لكليهما لأن أشرف العلوم قدراً وأعظمها جدوى
هو ما أنتجه التقوى من المعارف الربانية المعبرة عنها يعلم الولاية التى خير
النبي ﷺ فى بثها وعدم بثها ليلة المعراج على ما ورد فى الحديث وهو
منتهى علوم ما دون الأنبياء وإنما ذلك السلوك والمجاهدة الصحيحة لا
بمجرد إعمال الفكرة والقريحة ولأن غاية الكمالات العملية التى تتحلّى بها
النفوس الزكية، هى تهذيب الأخلاق، بما يليق بحضرة الإطلاق وهو
الفائدة المترتبة على السير والسلوك . إذ الغاية منه أن تحصل لنفس الإنسان
ملكة، تصدر معها الأفعال الإرادية جميلة طبعاً والعلم الباحث عن أحوال
السلوك يسمى علم التصوف فالفائدة المترتبة عليه عين ما يترتب على
السلوك من جهة أنه مفض إليه، إذ المترتب على المترتب على الشئ مترتب
على ذلك الشئ .

وأما ماهيته فهى العلم بأحوال النفس الإنسانية من جهة صدور
الأفعال الإرادية عنها جميلة أو غير جميلة .

وأما الموضوع فهو من كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية،
ومن هذا العلم هو النفس من تلك الحيثية كما فى تزكية الأرواح للإمام
الفاشاني قدس سره، وقد اتفقت آراء العقلاء على أن ذات المفيض جل
جلاله فى غاية التنزه عما نحن فيه من العلائق البدنية والكدورات الطبيعية
مع أنه لا بد لنا من استفادة الكمالات العلمية والعملية من تلك الحضرة
البهية ولفقدان وجه المناسبة بين المفيض عز اسمه وبيننا لاجرم وجب
الاستعانة فى الاستفادة من تلك الحضرة بمتوسط يكون له جهتان حتى

يقبل الفيض من المبدأ الفياض بإحدى الجهتين ويفيض علينا بالأخرى
فلذلك وقع التوسل في استكمال الأنفس من حضرة القدس بوسيلة
الوسائل وجامع أشتات الفضائل محمد ﷺ وبآله الوارثين في إرشاد
العالم.

قال السيد السند قدس سره في أوائل حاشية المطالع^(١) عندما قال
صاحب المطالع مثل ما قلنا فإن قيل هذا التوسل إنما يتصور إذا كانوا
متعلقين بالأبدان، وأما إذا تجردوا عنها فلا إذ لا جهة مقتضية للمناسبة،
قلنا يكفيه أنهم كانوا متعلقين بها متوجهين إلى تكميل النفوس الناقصة
بهمة عالية، فإن أثر ذلك باق فيهم ولذلك كانت زيارة مراقدهم معدة
لفيضان أنوار كثيرة منهم على الزائرين.

كما يشاهده أصحاب البصائر إذ النفس لما لم تكن مفتقرة إلى
الآلة في الإفاضة والاستفاضة المعنويين، كما أنها في الإدراك كذلك تبقى
النفس بعد المفارقة على ما عليها قبلها بل أقوى مما كانت عليها بوجوه
على ما حقق المحقق الرازي في المطالب العالية وسيجي تمام الكلام عليه
فظهر أن لا بد لأهل السلوك والرشاد من التوسل والاستعانة بالاستمداد
بأرواح الأجلة، والسادة الأمجاد، إذ هم المالكون لأزمة الأمور في نيل ذلك
المراد. هذا مبني على القول بجواز التوسل بالأشخاص كجوازه بالأعمال،
وقد ورد توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم وصح توسل عمر
بالعباس في استسقاؤه على ما سيجي، وثبت توسل الإمام زين العابدين
برجال الغيب على ما لا يخفى على المتتبع هذا ما ذهب إليه محققو
العلماء. وجمهور المتصوفة.

إلا أن ابن تيمية ومن حذى حذوه ممن ديدنهم الخلاف أنكروا زيارة
القبور فضلا عن التوسل بأرواح الأموات حتى اجتروا على المنع من زيارة
الروضة المطهرة، بل عن التوسل بالنبي عليه أكمل التحيات وألف في ذلك

(١) كتاب مطالع الأنوار في المنطق للقاضي سراج الدين محمود الأرموي، فشرحه
قطب الدين محمد الرازي وعليه من الحواشي حاشية السيد شريف على الجرجاني صار
عظيم القدر، وتوفي سنة ٧٦٦ هـ [١٣٦٤ م].

كتاباً فافتى العلماء بحبسه رجاء لارتداعه وإنقاذاً له عن غوايته وابتداعه لكنه أصر إصراراً حتى قيل سيصلى ناراً ومات فى السجن سامحه الله .

وهو وإن كان ممن خدم فى العلم لكنه قد غلط فى كثير من الأحكام على ما ذكره العلماء الأعلام مع أنه من المجسمة المراغمة لأهل السنة، فلا يكفى الطعن فيه بالألسنة بل بالأسنة .

وقد انتصب جماعة من المحققين لرد أباطيله منهم : الإمام المجتهد أبو الحسن السبكي ^(١) رحمه الله ولله دره حيث رد أباطيل ابن تيمية ^(٢) حق الرد فى مؤلفاته سيما فى شفاء السقام فى زيارة خير الأنام ومنهم التاج السبكي، والإمام عز بن جماعة ^(٣) ، وابن حجر، وأهل عصرهم وغيرهم من الحنفية، والشافعية، والمالكية .

وأما من انتصر له ممن ينتمى إلى العلم وناطق هؤلاء الجبال الشوامخ فليشفق رأسه والحاصل أن التصرف المعنوى الذى ^(٤) أثبت للأولياء فى الحياة ثابت لهم بعد الممات إذ هو أمر روحانى لا يعتريه الفوات فتلخص مما ذكرنا لزوم التوسل بالسادات فى تحلية النفس بالكمالات، فلذا ترى القوم يأمرؤن المريدين بالتوسل بالسادة المتقين، قال الناظم بعد التسمية :

حَمْدًا لِمَنْ أَدْعَى الْأَكْوَانُ مِنْ عَدَمٍ
هُوَ الْغَفُورُ لِعَبْدٍ عَادَ بِالنَّدَمِ

الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى سواء تعلق بالفضائل أو بالفواضل والمباحث المتعلقة به مما يستغنى عن البيان لوضوح أمره، وحمداً من المصادر الواجب حذف فعلها حذف وجوب سماعى فانتصابه على المفعولية المطلقة التأكيدية، وإنما آثرنا الفعلية فى هذا المقام على اختها

(١) أبو الحسن على السبكي توفى سنة ٧٥٦ هـ [١٣٥٥ م] فى القاهرة .

(٢) أحمد ابن تيمية الحرانى توفى سنة ٧٢٨ هـ [١٢٦٣ م] فى الشام .

(٣) محمد عز بن جماعة الشافعى توفى سنة ٧٣٣ هـ [١٣٣٢ م] .

(٤) لكن لا يخفى أن ذلك على سبيل جرى العادة، وإنما التصرف الحقيقى لله

لكونها أوفق بحالنا من جهة أنها تدل على التجدد دون الثبوت، لأن أفعالنا مشوبة بالفترة والتجدد فيإثار ما يفيدته يدل على اعتراف العجز عن استدامة الحمد بما يليق بجنابه .

وهو الملتزم كيف وقد قال أكمل الحامدين من العابدين عليه أتم السلام فى كل حين [سبحانك لا أخصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك] الثناء أعم من الحمد أو مساو له مفهوما فانتفاء الأعم أو المساوى يستلزم انتفاء الأخص أو المساوى الآخر على ما تقرر فى موضعه .

وكلمة من قد تكون شرطية واستفهامية فتعم وأما إذا كانت موصولة كما فى هذا المقام أو موصوفة فلا كما تقرر فى الأصول، وهى لأولى العلم مطلقا فلا إشكال وإلا فنضطر إلى التجوز كما لا يخفى، وإيثار الموصول للتفخيم ، ولأن ذاته تعالى مبهم لا يكاد يدرك كنهه فيإثار الموصول المبهم مناسب لذلك لأن العلماء وإن اختلفوا فى جواز إدراك الكنه عقلا لكنهم اتفقوا على عدم وقوعه لأحد قطعاً فى هذه النشأة فمن ادعى حصول المعرفة بالكنه بالسلوك فقد قفا أثر الشكوك وخبط خبط عشواء وركب متن عمياء .

وفى الحديث تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى ذات الله وقال القطب الأنور والمسك الأزفر الشيخ الأكبر التفكر فى ذات الله محال فلم يبق إلا التفكر فى الكون، وقال العارف الجامى فإن قلت إذا كان التفكر فى ذات الحق محالاً فما متوجه النهى قلنا إن المنهى متوجه إلى توهم تأتى الفكر فى الذات وأبدع صلة لمن وهو مع صلته فى حكم المشتق، والحكم عليه يدل على علة المأخذ فكأننا حمدناه على إبداعه الأكوان، لأن الوجود أعظم الجود، وسائر النعم متفرعة عليه ومنتمية إليه فيكون المحمود عليه مذكوراً كالمحمود، وأما الحامد فمنصوص عليه بالمحذوف حتى أن هذا أحد وجوه إيثار الفعلية، وأما وجه العدول عن الخطاب مع أنه المناسب بذلك الجناح فاستصغار النفس المدسوسة بالمعاصى المستأنسة كما أن العبد إذا أبق عن مولاه تابعا لنفسه وهواه ثم رجع إليه نادما عما فعله فهو يتوسل إليه بأودائه وأحبائه ليغفر له ما وقع عنه من الزلل ولا يبادر إلى الخطاب

لاستحيائه متذكراً لهفواته، فكذلك الناظم المتوسل لما تذكر ما صدر عنه فى سالف الأمر من الخطايا وموجبات العتاب استحيا أن ينبسط فى بساط الخطاب حتى حمده على الغيبة ثم أخبر بكونه غفوراً قاصراً إياه عليه مع عدم فائدة الخير ولازمه متخذاً إياه ذريعة لطلبه المغفرة فهو إنشاء معنى، وإن كان خبيراً مبنئ والإبداع فى اللغة الإيجاد لا على مثال وهو الملائم بالبيت ويؤيده قوله تعالى بديع السماوات والأرض لكونهما ما خلقا على مثال متقدم وفى الفتوحات كل ما خلق على غير مثال فهو مبدع بفتح الدال، وخالقها مبدع بكسرهما ١٠ هـ .

وفى بعض شروح الشمسية يطلق الإبداع على الإيجاد من غير توسط مادة أو آلة أو زمان وعلى إيجاد شئ غير مسبوق بالعدم، وقد صرح الشيخ بالأول فى الإشارات والمحقق الطوسى بالثانى فى شرحها .

وقال الجوهري: (١) أبدعت الشئ (٢) واخترعته لا على مثال ١٠ هـ أقول الأليق بالمقام هو المعنى الثالث على ما مر، وأما الحمل على الأوليين فلا يخلو عن تكلف كما لا يخفى مع أنهما مجرد اصطلاح فلسفى، وللقوم كلام طويل الذيل فى بيان كيفية فيضان الوجود من المبدأ الفياض على الممكنات بحيث يقرب مما ذهب إليه الحكماء من إثبات الوسائط إلا أن الحكماء زعموا الضرورة فى ثبوتها .

والصوفية قالوا: إنها أمر عادى جرت عليه سنة الصانع الحكيم لا ضرورة فى ثبوتها، ومن تدبر بالفكر الصائب لا يجد منافاة بين كلامهم وكلام المتكلمين حيث قالوا إن جميع الممكنات مستندة إلى الله تعالى بلا واسطة فتفطن ويعجبني فى هذا الباب رسالة المبدأ والمعاد لشيخ الإسلام العلامة الشيروانى رحمه الله تعالى .

وقال الفاضل الميبدى: إن أول سلسلة الممكنات جوهر عقلى إبداعى، وهناك الوجود فى غاية الشرف والكمال ويهبط منها أخذاً فى النقصان إلى

(١) إسماعيل الجوهري اللغوى توفى سنة ٣٩٣ هـ [١٠٠٢م] فى نيسابور .

(٢) محمد نصير الدين الطوسى الشيعى توفى سنة ٦٧٢ هـ [١٢٧٣م]

فى بغداد .

أن يبلغ غايته أعنى العناصر، ثم يعود منها أخذاً فى الكمال إلى أن يبلغ غايته الجوهر العقلى^(١) الأول كما بدأكم تعودون^١. ه أقول التعبيرات المتخالفة فى أول الصادر كالحقيقة المحمدية، والنور، والقلم، والعقل، وإن كانت تفضى إلى شبه لكنها تندفع عند مطالعة الرسالة التى صنفها المحقق^(٢) الكورانى فى أول صادر عن الواجب بالاختيار^(٣) فعليك بها.

الأكون جمع كون، وإنما سميت المبدعات بالأكون لكونها منفعة من أمركن ولو بواسطة.

قال السيد السند: الكون عند أهل التحقيق عبارة عن وجود العالم من حيث هو عالم، وذكر المناوى مثله فى التوقيف أقول فيتم الأمر والخلق لأن العالم أعم منهما، والكون مرادفه، وقيل الكون حصول الصورة فى المادة بعد أن لم تكن فيها فلا يطلق إلا على المركبات وجمعه باعتبار الأفراد إيذاناً لشمولها والخطاب بكن إلى العين الثابت فى حضرة العلم لذلك الشئ المراد إيجاده، ثم اعلم أن كل ما وجد ويوجد فى الخارج له فى حضرة العلم صورة وعين ثابت إذ الحق أحاط بكل شئ علماً، والشئ أعم من الموجود بالفعل، والموجود بالقوة فكل ما تعلقت الإرادة الإلهية بإيجاده من ابتداء العالم إلى انقضائه معينة فى تلك الحضرة وإلا للزم جهله تعالى فى الأزل بما يوجد فى الأبد تعالى الله عما لا يليق بجناب قدسه، وإذا تمهد هذا فنقول إن الوجود، إما واجب أو ممتنع أو ممكن.

فالأول: إما واجب لذاته فهو الحق سبحانه، وإما واجب لغيره فهو كبعث الموتى من قبورهم فإنه واجب الوقوع بالنظر إلى خبر الله تعالى مع إمكانه فى حد ذاته.

والثانى: إما ممتنع لذاته فهو ما يستحيله العقل السليم كخلق الحق مثله فى القدم، وإما ممتنع لغيره فهو ما امتنع وجوده بسبب أمر خارج مع

(١) الأحداث الذى هو النفس الناطقة المتحلية بصور الكائنات بالفعل كالعقل.

(٢) ملا كورانى أحمد معلّم لفاخ سلطان محمد خان توفى سنة ٨٩٣ هـ

[١٤٨٧ م].

(٣) موجود فى المكتبة المتصلة بجامعة السلطان بايزيد خان طيب الله ثراه.

إمكانه في حد ذاته كبعث رسول بعد نبينا لأنه ممتنع إلى خبر الله مع
إمكانه في حد ذاته.

والثالث : ما عدا الذاتيين فشرط تكون الشيء أن لا يمتنع وجوده
امتناعا ذاتيا، وأن يوجد عينه في حضرة العلم أعنى تعلق الإرادة به في
الأزل وهي صفة قديمة ولها تعلق لا يزال في المختار عند وجود الحادث،
وقيل أزل بشرط الوجود فيما لا يزال في وقت معين على ما تقرر في
موضعه، وتنضم إليهما المادة في المركب وهي الأجزاء التي لا تتجزأ عند
المتكلمين أو الهيولي والصورة عند الحكماء.

وأما ما مشى عليه المحقق الدواني^(١) في الزوراء فلزوم المادة للحادث
الذاتي كما في الزماني والحدوث الذاتي لازم لكل ممكن فإن عدم انفراد
المركب بالمادة عنده وقال أيضا في شرح الهياكل عند الكلام في علة
الأجسام قد برهن في موضعه على أن الجسم لا يكون علة لجسم آخر ولا
العرض القائم بذلك الجسم فهو إذن أمر آخر ليس بجسم ولا جسماني،
وهو النور المجرد، وعنى به الواجب على ما صرح به في رسالته الوجود^(٢).

وقد قال المحقق اللارى^(٣) في شرح الزوراء بكون العلة مادة
للمعلول أقول قولهما مبنى على زعم المظاهرة للسادة الصوفية القائلة
بالوحدة المطلقة إذ علة الموجودات موجدتها عز وجل فإذا كانت العلة مادة
للمعلول تعين عدم المباينة بينهما بل العينية كما لا يخفى لكن هذا
الانتصار له إليه افتقار فاتضح بما بسطناه لك في هذا المقام معنى قول حجة
الإسلام ليس في الإمكان أبدع مما كان إذ وجود الأبدع ممتنع لغيره لعدم
ثبوت عينه في حضرة العلم ونفى الإمكان بمعنى الاستعداد عن ذلك
المتنع مما شاع وذاع ويقرب منه ما أجاب به العارف عبد الكريم الجيلي^(٤)
كما نقله الشعراني.

(١) جلال الدين محمد الدواني توفي سنة ٩٠٨ هـ [١٥٠٢ م].

(٢) مؤلف كتاب الزوراء محمد جلال الدين أسعد الدواني توفي سنة ٩٠٨ هـ
[١٥٠٢ م].

(٣) كمال الدين محمد اللارى الحنفى توفي سنة ٩٥١ هـ [١٥٤٤ م].

(٤) عبد الكريم الجيلي القادري الحنبلي توفي سنة ٨٢٠ هـ [١٤١٧ م].

وأما جواب الشيخ فى الفتوحات فهو من أعظم السنوحات لكنه كاد أن لا يفهم للكل لدقة مدركه كما هو البادى من مسلكه .

وأما جواب الشاذلى فلم يظهر لى وجهه وللشيخ عبد القادر الصفورى أستاذ سيدى عبد الغنى النابلسى بيان عجيب فى تلك المسألة كما نقله صاحب خلاصة الأثر برمته فى ترجمته ويحسن أن يراد بإبداع الأكون اختراع ماهياتها والله أعلم، وإنما قيدنا إبداع الأكون بمن عدم لكونه بمنزلة الأم لوجود الممكن كما قال حضرة الأستاذ العارف حفظه الله :

از عدم آمد خیال ما بدو خواهیم رفت
در میان دو عدم هان آین نمایش معبرست
هر که زاید از عدم سوى عدم بوید همین
کى ببايد آنکسى کورا عدم جون ما درست

ويحمل التنوين فى عدم النوع فتدبر والشطر الثانى ظاهر أى هو الغفور لا غير لعبد آبق ثم عاد إليه بالندامة عما فعله لا لمن لم يعد إليه بالندامة فهنا أنا العبد الآبق الذى عاد إلى بابك نادما لما فرط عنه فجد بعفوك الجميل لهذا العبد الذليل .

أما التوبة وما يتعلق بها من الأحكام فمفصلة فى الفتح الربانى والفيض الرحمانى لسيدى عبد الغنى النابلسى وفى شرحنا على الأصول العشرة المسمى بالصحف المنشرة وهو الآن فى المسودة يسرنى الله التبييض وأصعدنا إلى الذروة من الحضيض :

ثم الصلاة على مبدى طرائقنا
محمد شمس رُشد ضاء فى الظلم

ثم ابتدائية ليست بعاطفة وهى قد تأتى لذلك على ما صرح الدمامينى^(١) بذلك وجملة الصلاة إنشائية والحمد خبرية فبينهما كمال انقطاع فلا يصح العطف بالواو إلا بتكلف، وأما عطف القصة على القصة

(١) محمد الدمامينى الإسكندرى توفى سنة ٨٢٨ هـ [١٤٢٤ م] .

فلا يعتبر أيضا لأنه ليس كل من المعطوف والمعطوف عليه جملا اللهم إلا أن يراد عطف الحاصل على الحاصل وأتى الناظم بالصلاة لخبر من صلى على في كتابه لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام اسمى في ذلك الكتاب رواه ابن عساكر عن أبي هريرة ذكره المناوي في شرح درر العراقى والحديث^(١) كل أمر ذى بال لم يبدأ فيه بذكر الله ثم الصلاة على فهو أقطع، أورده على القارىء فى أوائل شرح المشكاة وفى رواية فهو محقوق من كل بركة واللام فى الصلاة للاستغراق العرفى وعلى متعلق بمحذوف ومبدى بتخفيف الهمزة فاعل من الإبداء بمعنى الإظهار وإضافته إلى الطرائق من قبيل إضافة اسم الفاعل إلى المفعول إلا أنها معنوية لعدم وجود شرط العمل، وإنما جمعنا الطرائق وأضفنا إلى ضمير المتكلم مع الغير لينقسم الآحاد إلى الآحاد لأن كل فرد من أفراد السالكين إلى الحق له طريق خاص يقع سلوكه منه لا من غيره إذ السلوك إما بتزكية النفس بقطع العقبات وإما بتصفية الروح عن الكدورات ولا شك أن لكل نفس وروح مظهرية خاصة فسلوك زيد مثلا إما من نفسه أو روحه لا من نفس عمرو ولا من روحه وكذا عمرو وهلم جرا فلزم أن تكون أفراد الطرائق على قدر أشخاص السالكين وموضح تلك الطرائق باعتبار نوعيها هو النبى ﷺ حيث علق فلاح النفس بتزكيته فى قد أفلح من زكاها مشيراً إلى الأول وصلاح الجسد بصلاح المضغة التى هى مقر سلطنة الروح فى الحديث الذى رواه الشيخان مشيراً إلى الثانى .

وقد قال سيدى العارف الكبير والغوث الخطير تاج المحققين وزين الملة والدين الشيخ عبد الغنى النابلسى قدس سره فى أواخر باب الإحسان من كتابه الفتح الربانى ما عبارته والحاصل أن حصر أقسام الإحسان وأنواعه غير ممكن لأن لكل سالك حقيقة سلوك خاص ومشرب معين ومنهاج مستقل وإن كان الجميع لا يخرجون عن هذا الشرع المحمدى وسبب ذلك كثرة التجليات الإلهية بحيث لا تكاد تدخل تحت جنس ولا نوع يعرف هذا أصحاب الذوق والشهود . هـ .

(١) عبد الرؤوف المناوى الشافعى توفى سنة ٤٢٣ هـ [١٠٣١ م] .

وقال الشيخ مصطفى البكرى^(١) قدس سره فى الكأس الراق فى سبب اختلاف الطرائق فكل عبد له سىر يختص به واسم به يتلقى كل مكرمة ومن السعة الإلهية عدم تجلى الحق لعبد من وجه واحد مرتين أو لعبدین يتجل إلا الحكمة ا.هـ.

وقال حضرة الأستاذ فى بعض مكاتيبه وأما ما بدا بين أرباب الطرق من التفاوت فبحسب المشارب والصور وإلا فللعارفين اتحاد معنوى وتام الكلام فى شرحنا على الأصول العشرة (محمد) بيان للمبدى وشمس رشد خبر مبتدأ محذوف أى هو والرشد ضد الغى وقد عد الشمس فى المواهب من أسمائه ﷺ وضمير ضاء راجع إلى الشمس أو إلى محمد فعلى الأول التذكير للضرورة والظلم جمع ظلمة استعمل جمعا إيدانا لاشتدادها وهو ظرف لضاء أى فى ظلم الفترة والجاهلية إذ كان العالم عند قدومه ﷺ كما قيل مملوءا بغياهب الشرك والكفر والفسق، أما اليهود فقد كانوا بلغوا الغاية فى التشبيه والافتراء على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وفى تحريف التوراة.

أما النصارى ففى إثبات الأقانيم والتثليث وتحريف الإنجيل، وأما المجوس ففى إثبات الإلهين ووقوع المحاربة بينهما وفى تحليل نكاح الأمهات والبنات، وأما العرب ففى عبادة الأوثان والأصنام، وفى النهب والغارة وكانت الدنيا مملوءة من الأباطيل فلما بعث الله محمدا ﷺ وقام هو بدعوة الخلق إلى الدين الحق انقلبت الدنيا من هذه الباطل إلى الحق ومن الظلمة إلى النور وبطلت هذه الكفریات وزالت هذه الجهالات فى أكثر بلاد العالم واستنارت بمعرفته عقول بنى آدم وكل ذلك بشرف بعثته ونور طلعتة ﷺ:

كذا على آل والأصحاب قاطبة

هُم النُّجُومُ فَنُسْتَهْدَى بِهَدْيِهِمْ

الكاف بمعنى المثل وذا اسم إشارة أى مثل ما هو وارد ونازل على

(١) مصطفى بكرى الحنفى توفى سنة ١١٦٢ هـ [١٧٤٩م] فى الشام.

محمد من رحمة الله واستغفار الملائكة ودعاء المؤمنين وادل ونازلته^(١) على آله وأصحابه لأن اللام فيهما عوض عن المضاف إليه وإنما ترك العاطف مع وجود المصحح من اتحادهما إنشاء معنى ووجود الجامع من التماثل في المسند إليهما والتقارن في الخيال في المسندين للضرورة الشعرية وتركه فيها بل في السعة مما شاع وذاع.

قال السيوطي^(٢) في شرح عقود الجمان عند الكلام في الإيجاز الحذفى وقد يكون حرفا من حروف المعانى كهزمة الاستفهام وواو العطف ورب ونحو ذلك وهو كثير. هـ بل ادعى بعضهم وروده في القرآن العظيم كما قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى وجوه يومئذ ناعمة أى ووجوه بحذف واو العطف كما في لباب التفسير^(٣) والآل قرابته ﷺ الذين وجبت مودتهم وقيل الأتباع أما على الأول فعطف الأصحاب عليه من عطف العام على الخاص فتتضاعف الصلاة على من له شرفان شرف الصحبة وشرف القرابة، وأما على الثانى فمن عطف الخاص على العام فتتضاعف على من له شرفان شرف الاتباع وشرف الصحبة ولكل وجهة هو موليها إلا أنه لا يكون على الثانى تميز للآل النبوى عن عامة الصحابة.

وفى مختار الصحاح جاء القوم قاطبة أى جميعا وهو اسم يدل على العموم قاطبة حال مبنى تأكيد معنى وفى تعريف النجوم قصر ادعائى وفيه تلميح إلى الحديث الوارد فى حقهم رضى الله عنهم والفاء سببية أى بسبب كونهم نجوم الهداية فطلب الهداية باقتفاء أثرهم.

وفى مختار الصحاح يقال واهد واهدى عمار إلخ ولا يخفى ما فيه من حسن السبك وعذوبة المنهل:

يَا رَبِّ سَهِّلْ صَعَابِيْبَ السُّلُوكِ لَنَا
وَجِدْ بَفَيْضٍ وَوَصِّلْ غَيْرَ مُنْقَصِمٍ

يا: موضوعة لنداء البعيد على المشهور فلا يخفى مناسبته للمقام

(١) وارد ونازل.

(٢) جلال الدين عبد الرحمن السيوطى توفى سنة ٩١١ هـ [١٥٠٥] في القاهرة.

(٣) لباب التفسير المعروف بالخازن للشيخ على المتوفى سنة ٧٤١ هـ [١٣٤٠م].

وفى المختار رب كل شيء مالكة ويطلق على من يوصل الشيء إلى الكمال شيئاً فشيئاً وهو الحق فى الحقيقة ومن ثمه لا يطلق دون إضافة إلا على الله وكسرة الآخر تدل على ياء المتكلم المحذوفة وسهل دعاء على صيغة الأمر والصعابيب جمع صعبوب أى الشدائد كما فى شرح القاموس للزبيدي^(١) وإضافته إلى السلوك بمعنى اللام أو بمعنى فى والسلوك عند القوم عبارة عن المشى على المقامات بالحال وفيها عقبات لا يتيسر قطعها إلا لمن وفقه الله تعالى فلذلك ترى الكثير مائلاً عن المحجة وما لهم فى ذلك من حجة عصمنا الله وإياكم عن ذلك وعن مهالك تلك المسالك .

قال الشيخ الأكبر^(٢) ابن العربى فى الباب التاسع والثمانين ومائة من الفتوحات إن السلوك انتقال من منزل عبادة إلى منزل عبادة بالمعنى وانتقال بالصورة من عمل مشروع على طريق القرية إلى الله تعالى إلى عمل مشروع بطريق القرية إلى الله تعالى بفعل وترك فمن فعل إلى فعل، أو من ترك إلى ترك، أو من فعل إلى ترك، أو من ترك إلى فعل، وما ثم خامس للصور وانتقال بالعلم من مقام إلى مقام، ومن اسم إلى اسم، ومن تجل إلى تجل ومن نفس إلى نفس والمنتقل هو السالك وهو صاحب مجاهدات بدنية ورياضات نفسية أخذ نفسه بتهذيب إلى خلاق^(٣) وحكم على طبيعته بالقدر الذى يحتاج إليه من الغذاء ا.هـ.

وجد دعاء على صيغة الأمر من جاد وجود والباء متعلق به والفيض مأخوذ من فاض الماء فيضاً وفيضوضه إذا كثر حتى سال من جانب الوادى بحيث يسقى ما يجاوره من الزرع وتوارد العواطف الإلهية على القابل سميت بالفيض تشبيهاً بفيضان الماء فى كونه سبباً للإحياء والإبلاغ إلى الكمال .

وقال السيد الشريف فى حاشية المطالع الفيض فى الاصطلاح إنما

(١) السيد محمد مرتضى الحنفى الزبيدي توفى سنة ١٢٠٥ هـ [١٧٩٠م].

(٢) الشيخ الأكبر محيى الدين العربى محمد توفى سنة ٦٣٨ هـ [١٢٤٠م]

فى الشام .

(٣) الأخلاق .

يطلق على فعل فاعل يفعل دائما لا لعوض ولا لعرض، وجملة جد عطف على جملة سهل ووصل عطف على فيض وغير منقسم بمعنى غير منقطع من غير أن يبين فضلا عن أن يبين، وإنما عطفنا بالواو دون أخواتها من العواطف تنصيصاً لافتقارنا إلى فيضه ووصله من غير تقييد بقيد من قيود المعية والمهلة والتعقيب لأننا لو عطفنا بالفاء للزم أن يكون جوده بالفيض عقيب تسهيله الصعاب مع أنه فيض من فيوضه وكذا الوصل لو عطفناه بالفاء للزم أن يكون جوده بالوصل عقيب جوده بالفيض مع أنه ليس كذلك إذ السالك يحتاج إلى فيوض كثيرة في رفع الحجب والوصل إنما يتحقق بعد رفعها مع أنه لا غناء عن فيضه ولو بعد الوصل فتدبر، وأما ثم وباقي العواطف فعدم مناسبتها ظاهر وفي المختار الوصل ضد الهجران:

بجاه أحمد الهادي الشفيع غداً

وذا وسيلتنا في الحل والحرم

وفي مختار الصحاح الجاه القدر والمنزلة أى بقدر نبيك ومنزاته لديك والباء متعلق بسهل وضمير المتكلم عبارة عن معاشر المسترشدين الهادي صفة لأحمد والهداية عبارة عن إراثة طريق الحق ويتعدى بنفسه عند الحجازية وبإلى واللام عند غيرهم والكل واردة في القرآن والشفيع صفة بعد صفة لأحمد وغدا ظرف له كيف وقد أوتى له الشفاعة الكبرى وذا إشارة إلى هذا الهادي والشفيع صاحب المقام والبقيع وإنما أتينا بها دون الضمير في التعبير عن هذا النبي الخطير لكمال العناية إلى تمييزه أكمل تمييز إذ طيفه الأعز من كل عزيز مرتسمة في قلوب سالكي طريقته المثلى بل لا يكاد يغيب عنهم أصلاً ومن راجع كتاب الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء يقظة بسيد الدنيا والآخرة يجد الأمر فوق ما يعلم والله بحقيقة الأمر أعلم.

وفي المختار الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير أى وما وسيلتنا إليك إلا هو في الحل والحرم اللذين هما أعظم المقامات حساً ومعنى، أما أشرفيتهما حساً فظاهر، وأما معنى فيظهر بمزاولة كتب القوم بالسهر دون النوم كما أن ليس لأحد العبور عن حريم الحرم الحسى إلا بواسطة ودليل فذلك الأمر في

المعنوى فغاية ما يوصلك المشايخ إلى الحل المعنوى، وأما الوسيلة فى الحرم المعنوى فهو النبى ﷺ بالأصالة فليس لغيره أن يكون واسطة ووسيلة لأحد فيه، أما ترى أن الاستضاءة والاستهداء بالنجوم يكون إلى الصباح، وأما بعد طلوع الشمس فلا يظهر ضوء للنجوم حتى يستهدى به بل الاستهداء والاستضاءة بعد الطلوع بالشمس فقط لا بغير هذا النمط فتدبر وولد ﷺ بمكة عند طلوع الفجر يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول عام الفيل وفى المواهب وقيل ولد ليلا ومات أبوه عبد الله وأمه حامل به وقيل وهو ابن سنتين وأكثر النساء إرضاعا له حليلة السعدية وماتت والدته آمنة وهو ابن ست سنين على الصحيح ودفنت بالأبواء ثم حمل إلى جده عبد المطلب فكفله إلى تمام ثمان ولما مرض جده مرض الموت أوصى به إلى عمه أبى طالب فافتخر بشرف كفالته وتربيته ﷺ وكان يرى منه الخير والبركة كشبع عياله إذا أكل معهم وعدم شبعهم إذا لم يأكل معهم وغير ذلك ولما بلغ ﷺ خمسا وعشرين سنة سافر إلى الشام فى تجارة لخديجة وتزوجها فى تلك السنة وكان ﷺ ينقل الحجارة مع قریش حين جددت بناء الكعبة وكان إذ ذاك ابن خمس وثلاثين سنة وولدت فاطمة فى سنة بنائهم الكعبة فلما وصلوا إلى موضع يمين الله الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضعه ثم رضوا بأن يضعه ﷺ بيده فوضعه.

ولما قربت أيام الوحي حبيب الله إليه الخلوة يختلى فى غار حراء ويتعبد قيل بالذكر وعليه الأكثر وقيل بالفكر لكن رده العلامة المناوى فى الكواكب الدرية ورجح الأول .

وقال الشيخ الأكبر قدس سره الأنور أن تعبدته قبل نبوته كان بشريعة إبراهيم عليهما السلام وقيل غير ذلك وعند بلوغه أربعين سنة بدأ الوحي وهو فى الغار على ما بسط فى كتب السير وصار يدعو الناس إلى الله تعالى خفية لعدم الأمر بالإظهار وكان المسلمون إذا أرادوا الصلاة يذهبون إلى بعض الشعاب استخفاء من المشركين حتى اطلع نفر من المشركين على سعد بن أبى وقاص وهو فى نفر من المسلمين يصلون فى بعض الشعاب فعابوا عليهم ما يصنعون وقاتلوهم فضرب سعد رجلا منهم فشجه وهو

أول دم أهزى في الإسلام وكانت قريش تؤذيه ﷺ وتؤذى من آمن به حتى هاجر جمع من المسلمين إلى الحبشة بإشارته ﷺ وذلك سنة خمس من النبوة وكان المسلمون على ما قلنا من الاستخفاء إلى أن أمر الله تعالى بإظهار الدين والتحق عمر بن الخطاب إلى المسلمين بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب بثلاثة أيام وذلك سنة ست من النبوة وفي المواهب (١) وغيره أنه لما رأت قريش عز النبي ﷺ وعز أصحابه بالحبشة وإسلام عمر بن الخطاب وفشو الإسلام في القبائل أجمع المشركون على أن يقتلوه ﷺ وكان أبو طالب يذب عنه ويحميه حتى أجمعت قريش على منابذة بنى عبد المطلب وإبقائهم في الشعب بأن لا يبايعوهم ولا يناكحوهم ولا يدخلوا إليهم شيئاً من الرزق ويقطعون عنهم الأسواق ولا يقبلون منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة وذلك سنة سبع من النبوة وهاجر جماعة من المسلمين إلى الحبشة في تلك السنة وتمادوا على العمل بما فيها ثلاث سنين ثم نقضوها بسبب إخبار النبي ﷺ ما وقع للصحيفة من أكل الأرض ما فيها من عهد وميثاق مع إبقاء لفظة الجلالة معجزة باهرة منه ﷺ وما زادهم إلا بغياً وغياً حتى قالوا لأبي طالب هذا سحر ابن أخيك إلا أنه مشى قوم منهم إلى إخراجهم من الشعب حتى أخرجوهم وذلك في السنة العاشرة من النبوة.

وفي تلك السنة مات عمه أبو طالب بعدما خرج من الشعب بثمانية أشهر وهو ابن سبع وثمانين سنة على ما في المواهب وبعد ثلاثة أيام من وفاته ماتت أمنا خديجة رضي الله عنها فتتابعت الأحزان على النبي ﷺ ولذا سميت سنة الحزن.

وبعد ذلك خرج النبي عليه السلام إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف فلم يجد منهم ذلك فرجع وفي رجوعه ﷺ مرّ به نفر من جن نصيبين وأسلموا واجتمع بعد هذه المرة بالجن في مكة مرتين وقيل ثلاثاً

(١) مؤلف المواهب اللدنية أحمد القسطلاني الشافعي توفي سنة ٩٢٣ هـ

[١٥١٧ م] في مصر.

وفى السنة الثانية عشرة من النبوة وقع الإسراء يقظة ليلة السبت لسبع وعشرين خلت من ربيع الأول قاله ابن الأثير^(١) والنووى فى شرح مسلم وقيل فى ربيع الآخر قاله النووى^(٢) فى فتاويه وقيل فى رجب وعليه العمل الآن وقيل غير ذلك ولما أصبح أخبر الناس فكذبه الكفار وسئلوه عن صفة بيت المقدس فرفعه له جبريل حتى وصفه لهم ولما اشتد الأذى للمصطفى ﷺ عرض نفسه للقبائل يطلب من يؤويه ويحميه ليبلغ رسالة ربه فكل منهم يعرض عنه ويهزأ به حتى أتاح الله له الأنصار فصار الواحد منهم يسلم فيسلم جميع عشيرته ففشأ الإسلام بالمدينة حتى استأذن المسلمون منه فى الهجرة إليها فأذن لهم فخرجوا أرسالاً^(*) إلا عمر بن الخطاب فإنه أعلن بالهجرة ولما طلع المشركون على هجرة المؤمنين تشاوروا فى دار الندوة وأطبقت آراؤهم على قتل الرسول عليه السلام بالكيفية التى علمها الشيخ النجدي حتى حاصروا دار النبى عليه السلام وهو قد خرج من بينهم تائراً عليهم التراب وهم لا يبصرون وسار مع أبى بكر إلى غار ثور وباتا فيه ليلالى ثم خرجا منه متوجهين إلى المدينة حتى وصلا إلى القباء وظهر عنه عليه السلام معجزات باهرات فى أثناء الطريق على ما فصل فى محله وكان مسلمو المدينة وقفوا بمقدمه عليه السلام فاستقبلوه وأدركه على كرم الله وجهه هو ومن معه من ضعفاء المسلمين بقباء لأنه كان أبقاه النبى عليه السلام لتأدية الأمانات المودعة عنده إلى أهلها.

ثم أمر النبى عليه السلام بالتاريخ فكتب من حين الهجرة وأقام بقباء أياماً وأسس بها مسجداً ثم خرج متوجهاً إلى المدينة ووصل إليها وقد أرخى زمام ناقته حتى بركت بباب^(٣) أبى أيوب الأنصارى فنزل بداره ثم ابتاع مبرك الناقة وبنى فيه مسجداً وحجرتين لزوجتيه عائشة وسودة ومكث فى دار أبى أيوب سبعة أشهر إلى أن تم بناء المسجد والحجرتين وكان

(١) ابن الأثير عز الدين على الجزرى مات سنة ٦٣٠ هـ [١٢٣٢ م] فى الموصل.

(٢) يحيى النووى الشافعى توفى سنة ٦٧٦ هـ [١٢٧٧ م] فى الشام.

(٣) خالد بن زيد توفى سنة ٥٠ هـ [٦٧٠ م] فى إستانبول.

(*) أى قطائع سراً.

المسلمون فى سرور وفرح لتقوى الإسلام يوما فيوما إلا أن المهاجرين استوخموا هواء المدينة ولم يوافق أمزجتهم فمرض كثير منهم وضعفوا حتى لم يقدرُوا على الصلاة قياما فكان المشركون والمنافقون يقولون أضناهم حمى يثرب إلى أن دعى النبى عليه السلام بنقلها إلى الجحفة معجزة منه عليه السلام ثم آخى بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس وقيل فى المسجد .

ففى السنة الأولى من الهجرة فرض الله عليه الجهاد وبدأ الأذان وأعرس بعائشة وهى بنت تسع بعد أن تزوجها بمكة وهى بنت ست وقيل سبع .

وفى السنة الثانية حولت القبلة إلى الكعبة وفيها فرضت زكاة المال والفطر والصوم وصلاة العيدين والتضحية وفيها أعرس على بفاطمة رضى الله عنها وفيها غزوة بدر الكبرى وبواط وذى العشيرة وبنى قينقاع والسويق .

وفى السنة الثالثة حرمت الخمر وولد الحسن بن على وفيها غزوة أحد وحمراء الأسد .

وفى السنة الرابعة ولد الحسين ونزلت آية التيمم وفيها غزوة بنى النضير وفيها قصرت الصلاة فى السفر .

وفى السنة الخامسة غزوة دومة الجندل والمصطلق والخندق وبنى قريظة .

وفى السنة السادسة كانت غزوة الحديبية وبيعة الرضوان وفيها غزوة بنى لحيان والغابة .

وفى السنة السابعة كانت عمرة القضاء وفيها غزوة خيبر وإسلام أبى هريرة وبعث الرسل إلى الملوك واتخاذ الخاتم لحتم الكتب وتحريم الحمر الأهلية .

وفى [السنة] الثامنة كانت غزوة فتح مكة وتطهير البيت عن الأصنام وفيها غزوة حنين والطائف وفيها اتخاذ المنبر والخطبة عليه .